

المرأة في العالم الروائي لبشير مفتي

Women in the world of novelist Bashir Mufti

✉ زارقة الوكال²

echihabe@yahoo.fr

المركز الجامعي بافلوا ، افلوا الأغواط، (الجزائر)

✉ مهبوي خديجة¹

kh.mi83@yahoo.com

جامعة عمار ثلجي، بالأغواط، (الجزائر)

تاريخ النشر: 2022/06/16

تاريخ القبول: 2022/05/14

تاريخ الاستلام: 2021/11/01



ABSTRACT:

ملخص البحث

Women received great attention in the literary creative aspect, and they were the inspiration for many poets and writers, whose poems and stories revolve around them. This study aims to reveal that, how did women appear in the novelist world of Bashir Mufti? And what pictures did you take?

Keywords: women; the novel; violence; Bashir Mufti

لقيت المرأة اهتماما كبيرا في الجانب الإبداعي الأدبي ، فكانت الملهمة للعديد من الشعراء والأدباء. تدور حولها قصائدهم وقصصهم، كيف ولا والمرأة هي نصف المجتمع، والرعاية للنصف الثاني، ومن بين هؤلاء الأدباء بشير مفتي. ففي عالمه الروائي تحظر المرأة بشكل متنوع ومتميز، والتي تهدف هذه الدراسة للكشف عن ذلك، فكيف ارتسمت المرأة في العالم الروائي لبشير مفتي؟
الكلمات المفتاحية: المرأة: الرواية: العنف: بشر مفتي.

¹ المؤلف المرسل : مهبوي خديجة .

1- مقدمة:

المرأة في العالم الروائي لبشير مفتي، تحتل أدواراً مختلفة في العمل السردي فأحياناً نجدها الشخصية الرئيسية ومحور الحكى، وأحياناً تكون شخصية المرأة هي السبب الرئيسي لتغير المسار السردى وأساس مهم لتكوين الحبكة السردية، وفي بعض الأحيان تكون شخصية ثانوية، كما أنها تضيف على النص جمالية لا يمكن الاستغناء عنها، وهي تختلف حسب الدور المنوط بها، فهناك المرأة المتمرده، والمرأة الحبيبة، والمرأة الزوجة، والمرأة الأم ..إلخ، فهل أضف هذا التنوع في توظيف المرأة جمالية فنية؟ وهل استطاع الكاتب أن يعكس واقع المرأة في ظل مجتمع ذكوري متسلط؟ ثم كيف كانت علاقة المرأة مع الجسد في واقع مليء بالعنف؟.

تهدف هذه الدراسة للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، والتي اعتمدنا فيها على مقارنة وصفية تحليلية.

2. صور المرأة في روايات بشير مفتي:

حضرت المرأة بصور مختلفة في الرواية العربية باعتبارها وسيلة للتعبير عن أفكار الروائيين وتصوراتهم، وجسر للربح عن ما يختلجهم من أحاسيس ومشاعر، وهموم ومشاكل، دون الابتعاد عن ربطها بالواقع الاجتماعي المعيش، فتصوير بشير مفتي لشخصية المرأة لم يولد من فراغ بل هو ناتج عن تمثيلها في الواقع الجزائري، فالمرأة بقيت لعقود طويلة أقل مكانة من الرجل، هذا الأخير الذي كان يختزل صورتها في إنجاب الأولاد وخدمته والسهرة على راحته باعتبار أن المنزل هو مكانها الطبيعي، ولهذا نجدها تسعى جاهدة للتحرر من هذه الصورة النمطية التي لصقت بها منذ الأزل من خلال تمرداها عن قواعد وقيود المجتمع فكيف كانت صورة المرأة في روايات بشير مفتي؟.

1-2- المرأة/ التمرد:

المرأة العربية عامة والجزائرية خاصة عاشت ومازالت تعيش مقيدة بسلاسل العادات والتقاليد، فالمرأة في الأعراف الجزائرية أقل مكانة من الرجل فهي تعيش للزوج وبالزوج، حتى في الكتابات الأسطورية نجد أن المرأة هي من تتحمل عبء خروج الرجل من الجنة لأنها هي من أغوته وشجعت على اتباع الشيطان وهذا في الأسطورة التوراتية، أما في الدعوة البرغماتية تحولت بخدع التحرر وانفتاح إلى سلعة جسدية منتهكة، لا تختلف عن العصور الجاهلية¹، فصورة المرأة في البنية الثقافية مشوهة، منطلقة من خلفيات اجتماعية وأسطورية وخرافية ودينية ..إلخ.

إن المتفحص للخلفيات التي شكلت المرأة في صورة جنس آخر ضعيف سلعي، جمالي، شرير، هي خلفيات المجتمعات الذكورية نفسها، فأصبحت أسيرة عالم ذكوري متسلط، بدأ بالسلطة الأبوية والأخوية ثم الزوجية، مما ولد بداخل البعض الرغبة في كسر هذه القيود والتمرد على هذه القوانين

الاجتماعية التي تتعارض مع رغباتهن وطموحاتهن، وأحيانا يكون هذا التمرد نتيجة لظروف اجتماعية ضاغطة، ولل فراغ العاطفي الذي خلق بالداخل شعورا بالكراهة نحو الكل، فصارت الشر في أعلى صورته. «أشعر بأنني مفطورة على نوع من الشر الخاص بمثلي من البشر، بشرا لا يصنفهم العالم إلا في دائرة المنحرفين والمجرمين، لكنهم يبقون بشرا، بمنظور آخر مرتبط بسياق حياتهم، وظروف عيشهم وتطور تركيبهم النفسية والمادية معا»²، كل هذه الأمور جعلت من (الليا عياش) تتمرد على جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية والعرفية، فكان تمردا كالزلزال يهدم كل شيء واختارت لنفسها حياة العريضة واليهو في أقصى صورته، فكان هذا التمرد تمردا سلبيا، جمعت فيه كل أنواع التمرد من التمرد الاجتماعي والديني والأخلاقي.

أحيانا ينتج التمرد عن الأعراف والتقاليد للمجتمع ف (رشيدة) التي أحبت شابا في زمن يعتبرون الحب فيه جريمة لا تغتفر «... وأي جريمة أن يكون لأختي رشيدة عاشق سري، حبيب لا يعلم به الآخرون، وأنها تقوم بشيء لا يرضى عنه لا الله، ولا العائلة، ولا أحد»³، فدفعت فاتورة تمردا غالية إذ قررت الفرار من واقعها بالانتحار.

وقد يكون التمرد على المجتمع وأعرافه نتيجة للقناعات والأفكار ورغبة المرأة في التحرر، حال (سميرة قطاش)، فكان تمردا إيجابيا استطاعت أن تثبت فيه وجودها داخل المجتمع كأستاذة جامعية، ولكن دائما المرأة تواجه مجتمعا متشعبا بأفكار يستحيل أن تتغير بين عشية وضحاها. غير أن الإفراط في التمرد والخروج عن القوانين الأخلاقية، يتحول إلى تمرد سلبي يقود صاحبه للهاوية.

2-2- المرأة/ الحبيبة:

يعتبر الحب هو أسمى المشاعر الإنسانية، يولد الانجذاب والإعجاب بالمحبوب، وهو ما يجمع قلبي الرجل والمرأة، مما جعل كبار الشعراء والأدباء قديما وحديثا يتركون لنا تراثا ضخما عن الحب ولوعته، وعجز الحكماء والفلاسفة والعلماء عن تعريفه وتفسيره «فقال ابقراط: هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بماء مثله، عسر تخليصه بحيلة من الحيل. و النفس ألطف من الماء وأرق مسلكا، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي، ولا تخلقه الدهور، دق عن الأوهام مسلكه، وخفي عن الأبصار موضعه. غير أن ابتداء حركته من القلب، ثم تسير إلى سائر الأعضاء، فتظهر الرعشة في الأطراف، والصفرة في الألوان، واللجلجة في الكلام، والضعف في الرأي، حتى ينسب صاحبه إلى النقص وقال بعضهم: إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة، وجزأها أنصافا، وجعل كل نصف جسدا، فكل جسد لقي قسيمه، وهو ذلك النصف من الكرة، كان بينهما عشق المناسبة القديمة»⁴، فعند إيجاد النصف الثاني من الروح تتحد مع نظيرتها وتكملان بعضهما البعض، فميل النفس لمن تحب وترغب اضطراري سالب للإرادة، حاكم غاشم و داء ليس له دواء كما يقول الجاحظ «العشق داء لا يملك دفعه وهو داء يصيب الروح، ويشتمل على الجسم بالمجاورة، كما ينال الروح الضعف من البطش.

والوهن في المرء ينهكه، وداء العشق معموم في جميع البدن، بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم، وصعوبة دوائه يأتي من قبل اختلاف علله»⁵

في رواية دمية النار كانت (رانية مسعودي) الحبيبة المرغوبة والمطلوبة من طرف (رضا شاوش) «بت ليلتي تلك أحلم من جديد برانية مسعودي.. كان تشردي الغريب، وتيهي الكبير بلا غاية أو هدف، قد أوصلاني لنقطة البدء، إلى رانية التي زرعت وحدها تلك البذرة العصية على التصنيف.

الحب لا نعرف ماهيته، لكن يمكن الإحساس به. هذا ما قعدت أقوله لنفسي ليلا وأنا أبحر في خيالي الجامح الذي نشط فجأة، وراح يرسم خيوطا من حرير، وأفاقا واسعة لاتحد.

ما الغاية من الحياة؟

يكفي أن ينبض القلب بتلك السرعة الخاطفة حتى نقول هذا هو المنتهى/ المشتى»⁶.

لكن أصعب أنواع الحب هو الحب من طرف واحد فيكون مدمرا، وهذا هو الحال في رواية دمية النار (رانية مسعودي)/ الحبيبة/ ل (رضا شاوش) قلبها ملك لآخر تريده للزواج.

سر الحب و التعلق بالمحبيب من المشاعر الإنسانية الغامضة التي لا يمتلك الفرد حرية اختيار فيه، ولا رفض المحبوب تطفئ ناره فالقلب بقي معلق ب (رانية) «... ولا أدري لماذا بقي الحب مرتبطا بهذه المرأة رانية؟ هل لأنها لم تأخذني بالجدية التي أستحقها؟ هل لأنها رفضتني فأغرقني ذلك في عزلة رهيبة؟ أم إن الحب كما يقول صديقي عدنان " يصبح الحب حبا حقيقيا عندما يستحيل تحقيقه؟" وها هو يستحيل أمام عيني دون أن أملك قدرة على فعل شيء واحد يمكنه أن يرجعني لسكة الطريق»⁷، فشخصية المرأة الحبيبة في رواية دمية النار يستحيل الظفر بها لأنه حب أعرج.

فالحب شعور إنساني سامي يعجز الإنسان عن كبح مشاعره أو التحكم فيها، فيفرض سلطانه على العقل والقلب، مثل (علي الحراشي) رغم حفظه للقرآن ورغبته في تطبيق الدنيا بقيت (سعاد بنت الخباز) الحبيبة والحلم دائما عاجزا عن نسيانها رغم بعد المسافة بينهما.

شخصية المرأة الحبيبة في رواية لعبة السعادة تختلف فالحب كان متبادلا بين الطرفين، (ناريما) التي استطاعت أن تزرع بذور حبا في قلب (مراد زاهر) وتصبح المرغوب الوحيد «لا أرغب في شيء آخر الآن إلا أن أكون مع حبيبتي ناريما التي تلهمني الرغبة في الحياة، تعطيني الأمان والسعادة التي بها سأستطيع أن أعيش، وإن فقدتها سأفقد لذة المعيش. لم أطلب من الحياة في تلك اللحظة إلا أن أكون مع تلك الفتاة التي شقت صدري وزرعت فيه بذور حبا الكبير»⁸

المرأة المحبة/ الحبيبة رغم تضحياتها فإنها تستطيع أن تتحول من شخصية مسالمة إلى شخصية عدائية إذا ما غدر بها، فتتحول من ملاك إلى قاتلة «...قتلتني عندما كنت أحاول أن أطوقها بذراعي

وأبكي أمامها، أبكي لنفسِي، أعتذر عن كل شيء، عن لا شيء أتضرع لها كي تشفع لي حمقي وبلاهي وعدم قدرتي على تحديد الأساسي في حياتي»⁹

لم ينجح الحب في زمن الحرب في روايات بشير مفتي، فكان رهانا خاسرا لم تنجح ولا قصة حب ولم تنل المرأة الحبيبة ما أحبت وهذا بسبب الحرب، الخيانة، الكذب، الموت، الهروب... إلخ

4-2- المرأة / النضال:

عرفت المرأة الجزائرية بقوة شخصيتها وتحملها لأصعب الظروف، والتضحية من أجل الوطن بالنفس والنفيس فلقد شاركت في ثورة التحرير الكبرى وناضلت من أجل الحرية، ف (زهية) ماهي إلا عينة من العينات التي خدمت الوطن وضحت من أجله «هكذا صرت مجاهدة معهم. في البداية اقتصر عملي على نقل النقاشات التي تدور في بيت المسيو جيرار»¹⁰، لتزداد مهامها صعوبة باشتغالها بالدعارة من أجل استرسال الجنود الفرنسيين بالكلام، ثم تعمل كممرضة في الجبل.

لم يتوقف نضال المرأة بعد الاستقلال، بل بقي مستمرا وفي أصعب الظروف التي مرت بها الجزائر في العشرية الدموية، حيث كانت المرأة مستهدفة من قبل القوات المسلحة لكنها رفضت الرضوخ والاستسلام وما (زهرة الفاطمي) إلا أنموذجا من النساء اللواتي اشتغلنا في مهن حساسة كالصحافة فكان القلم سلاحهم الوحيد في وجه الموت الفظيع «...لكن مهنتي كصحفية لا أدري لماذا أكسبني ثقة كبيرة بنفسِي، وعززت هذه الصلابة بداخلي. لا أريدهم أن يشعروا بأنهم سينتصرون علينا، وكما كانت فجيعتك هي فاجعتي. أشعر أن كل من يقتل اليوم بالسيارات المفخخة، أو بالإعدامات الجماعية أو الذبح هو أيضا فاجعتي..»¹¹.

5-2- المرأة / الزوجة:

يعد الزواج هو الذي يحدد العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة، من خلاله تتأسس الأسرة التي هي نواة المجتمع، فاختلفت شخصية الزوجة من رواية إلى أخرى، فنجد الزوجة الصابرة القنوعة، كثيرة الإنجاب رغم فقر زوجها حال زوجة الإسكافي وأم (علي الحراشي)، فالمودة والحب تطيل العشرة الزوجية «كان يجمعهما حب قوي ومثير، وكان يظهر ذلك في علاقتهما المترابطة والمتراصة، وفي تفاهمهما الكامل عندما تحدث مشكلات أو تواجههما ظروف صعبة، شاهدت هذا في أكثر من موقف»¹²

في حالات أخرى تحولت العلاقة الزوجية من علاقة تكامل بين الطرفين إلى علاقة استغلال أو نظرة دونية للمرأة بتحويلها من شريك حياة إلى ملكية خاصة، يحق للزوج أن يسلبها أبسط حقوقها مثل اسمها التي كان زوجها «مليء بكل الأمراض النفسية التي جمعت فيه. غيور هو الآخر، يشتهبه

حتى في نملة إن وجدني أنظر إليها، وبسرعة صار يضربني هو الآخر. تقبلت ذلك الضرب منهم جميعاً»¹³ مما أدى بهروب هذه الزوجة.

وقد تكون الزوجة هي المخادعة والخائنة فأم (ليليا عياش) تزوجت بعد وفاة زوجها بمدة قصيرة جداً، مع زميل لها والذي كانت تجمعها معه علاقة، و (نور) في رواية لعبة السعادة على الرغم من زواجها من (مراد زاهر)، بقيت علاقتها مع عشيقها السابق مستمرة.

2-6- المرأة / الأم:

تبقى الأم على مر العصور منبع الحنان والعطاء، والتضحية بدون مقابل ركيزة وعماد الأسرة، في رواية خرائط لشهوة الليل صورة الأم تختلف عن ما هو معتاد، فهي أم صارمة قاسية على ابنتها (ليليا عياش) منذ صغرها خاصة عند وفاة والدها غير مهتمة بغياها أو حضورها «أمي لا تسأل عني حتى ولو غبت أسبوعاً، كانت تتركني على حريقي»¹⁴.

أحياناً تكون شخصية الأم مستسلمة راضية بحياتها مع زوجها رغم سوء المعاملة «لقد رأيته يضربها مرة بنعل حذائه وهو يصيح بها لأنها نسيت أن تحضر كوب ماء :

-أيها النعسانة.. خذي هذه. يقذفها بالنعل فيصيب وجهها أو صدرها أو كتفها، ومرة يصيب بطنها فتكاد تسقط لهول تلك القذفة الجبارة»¹⁵ لكنها بقيت صامدة صابرة في سبيل أن لا تشتت شمل أسرتهما، وأحياناً تكون الظروف صعبة على الأم بسبب الطلاق، كحال والدة (سميرة قطاش) التي تركها زوجها تصارع الظروف من أجل أولادها.

3- المرأة صراع الأنا والجسد :

الجسد هو دليل الوجود المادي للإنسان وحقيقته، وربط ابن منظور بين الجسد والعقل «الجسد جسم الإنسان، ولا يقال لغيره من الأجسام المتغذية ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض، والجسد البدن (...) وقد يقال للملائكة، والجنّ جسد، وكل خلق لا يأكل، ولا يشرب من نحو الملائكة، والجن مما يعقل فهو جسد»¹⁶ فالجسد يطلق على جسم الإنسان، والملائكة والجن فهو حكر على من يعقل .

الجسد في اللغات الأجنبية Le corps «منحدر من اللفظ اللاتيني coups أي الجزء المادي للكائنات الحية، وهو يعتبر مركز للعواطف والإحساسات وللشبقية»¹⁷ إضافة إلى أنه يحدد الصورة الخارجية للإنسان يحمل معه الشعور الداخلي له.

وبتالي فالجسد هو اتحاد الجانب الفيزيائي – الشكل الخارجي- مع الجانب النفسي والاجتماعي والتاريخي محددًا بذلك ذاتية الفرد وتميزه عن غيره، فهو عامل ينفرد به المرء ويعرف ويثبت وجوده

المللموس ف «الجسد CORPS معطى أولي، إنه موضوع يكل منبع الحياة، والحركة والفعل، والوعي، وهو مكتسب قبلي سابق على كل الروح باعتباره معيارا أوليا في الوجود»¹⁸.

كانت بعض المجتمعات تحاول التقليل من قيمته، كونه زائل لا محالة ف « تتوالى الصور التي تسعى للتقليل ثقافيا من سر الجسد. فعدد لا يحصى من الصور الغربية ترسم بالنقط حضور موضوع زائل، لا يمكن إدراكه، ومع ذلك فهو موجود ظاهريا بشكل لا جدال فيه»¹⁹، لكن يبقى الجسد وسيلة التواصل الاجتماعي فيستحيل وجود إنسان بدونه، وللجسد عدة أنواع يشير رولان بارت لها منها «الجسد الأنثروبولوجي الذي يتحول عبر التاريخ، والجسد الديني الذي يقيم صلة مع المقدس، و الجسد الجمالي الذي أصبح موضوعا لتمثيلات فنية الجسد وهو جسد يكون دوما في حالة فرجة تجاه الآخر»²⁰

المرأة في روايات بشير مفتي تتمتع بجانب فيزيولوجي جمالي، فكان الجسد هو الورقة الراحبة التي تلعب عليها باستعماله كوسيلة لبلوغ الهدف المراد وتحقيق غاية أو رغبة داخلية، فهو الواجهة المطللة للتعامل مع العالم الخارجي.

(ليليا عياش) في رواية خرائط لشهوة الليل تظهر شخصية غير سوية، تعاني من صراعات داخلية، وهذا راجع للظروف الاجتماعية التي عاشتها بموت والدها في سن التاسعة، وزواج أمها بعد سبعة أشهر و إهمالها لها، كل هذه الأمور وغيرها جعلتها تعاني من اضطرابات نفسية، هذا ما دفعها للتفكير في الانتقام باستعمال جمال جسدها، فالانتقام ناجم عن الصراع بين ما هو داخلي وخارجي، كانت جل ضحاياها من المقربين كصديقة الطفولة، لتزداد بشاعة الانتقام فتكون الضحية الأم مستعملة الجسد في إغراء زوج أمها مما يتسبب في وفاتها «ما أن دخلت الغرفة، ورأينا على الحالة التي كنا عليها، حتى سقطت مغشيا عليها، سقطت تحتضر»²¹.

ترنحت حياة (ليليا عياش) بين حياتين حياة الليل بائعة هوى وحياة النهار طالبة جامعية، فهي تعاني من صراع نفسي داخلي «كنت مقتنعة بازدواجيتي وانفصامي تقريبا، وبكوني أمتلك رؤيتين منسجمتين، تجمعان الليل بالنهار، والسواد بالبياض والخير والشر، وهكذا دواليك. كنت أعيش وفق منطق مختلف عن كل من وضع حدودا بينهما، عمن تسيج برؤية واحدة، وتخدق في جهة وحيدة»²²، واستغلت (ليليا عياش) جمال جسدها وشيطنته لأبعد الحدود، هذا الجسد الذي يأسر الجميع معقل الرغبات والشهوات «... هناك رجال لا يقاومون سحر الجسد، وكل قواهم وذكائهم ونضجهم لا ينفع في أمور من هذا القبيل، يتركون نزوة الرغبات تفقدهم عقولهم وتفكيرهم وتحيلهم من جهات عدة إلى مجرد حيوانات صغيرة تبحث عن سعادة جسدها فقط»²³.

عاشت علاقات مختلفة لتنتهي بزواجها من رجل يكبرها بعقود، عانت معه الوحدة والإهمال ذقت معه ويلات الخوف وقلق الانتظار، فكانت له كالدمية متى أرادها وجدها، عاشت صراعات عبر أنها الداخلي، في ظلام النفس وظلام الليل.

أحيانا يندس الجسد باسم المقدس - الحب - ف (لولا) الفتاة التي أحبت شابا وسمحت له بتدليس جسدها بعد أن وعدها بالزواج، ويزداد تدليس هذا الجسد عندما قررت الهروب من المنزل بسبب حملها، لتقع ثانية في ذنب بشري آخر لا ينظر إليها إلا جسدا فكانت له دمية لتسلية «شعرت بعد معاشره هذا الرجل لم تعد إلا دمية مضبوطة على إيقاعاته ونزواته و شيطانيته»²⁴، بعدها تستلم للواقع وتصبح بائعة هوى بسبب هذا ارتبطت النظرة الدونية بالجسد واعتباره مجرد وسيلة لإشباع الرغبات الحسية.

قد يتحول الجسد المقدس إلى مدنس، ويصبح فخ تسقطه في الفرائس ووسيلة للإيقاع بالخصوم، فتقلصت «المرأة وأصبحت مجرد (جسد) وتم استثمار هذا الجسد ثقافيا، وجرى دفع المرأة لأن ترى نفسها على أنها جسد مثير، وصارت تسعى إلى إبراز هذا المعنى فيها. وهان على الثقافة الذكورية أن تفك العقل وتعزله عن الجسد لتجعل العقل للرجل وحده، والجسد الخالص للأنثى. وجاءت الثقافة المعاصرة لتعزز هذا التقسيم الغاشم من خلال تسليع الأنوثة وتسويقها كبضاعة تغري المستهلك المذكر وتدفعه إلى البذل والاستجابة لما يتطابق مع كوامن فحولته المتربصة»²⁵، فكان جسد (رانية مسعودي) هو الطعم «... وكثيرا ما استعمل فتاة أحلامي رانية مسعودي لتلك المهام، وكانت تقوم بذلك على أحسن وجه، وتنجح في الإطاحة بمن تريد. لقد بقي جمالها الجسدي مثيرا حقا، وكنت أستمع لأخبار مهامها هي الأخرى، فأعجب كيف يتحول الإنسان من كائن إلى آخر؟!»²⁶

قد يندس الجسم من أجل عمل مقدس، يتم التضحية به من أجل الوطن كما فعلت (زهية)، عملت بالدعارة من أجل وطنها، ورغم الهدف السامي الذي كانت تسعى لتحقيقه، إلا أنها وقعت في صراع داخلي نفسي «... فلم أكن متعودة على حياة الدعارة تلك، كل ليلة مع أكثر من شخص، مع شرب النبيذ دون رغبة، وبقدر ما كنت متماسكة لأن الذين أعمل معهم كانوا يقفون معي ضد هذا الإحساس بالمهانة، ويحرصون على رفع مشاعري الوطنية، وتقديس دوري البطولي، فلقد كان ذلك ينقص من إحساسي. إني أفقد إلى جانب جسدي روحي أيضا»²⁷ ومع ذلك يولد صراع نفسي عنيف

يندس الجسد- المقدس- نتيجة للعنف فيصبح الوسيلة المتاحة للتمرد ورفض الواقع حال (اسمهان) التي عانت من العنف الأسري على يد الزوج والأب مما دفعها إلى الهرب وجعلها عرضة للاستغلال الجسدي وتدنيته «الذين ساعدوني لكي أقف على قدمي لم يكن دافعهم الشفقة بل الاستغلال لا غير، واستغلوني كما يريدون دون أدنى شفقة، أعرفهم جميعا كما أذكرهم واحدا واحدا، من صاحب المحل الحاج مختار، إلى صاحب مطعم الفصول الأربعة، إلى الشرطي كريمو،

الكل قال لي في أول الأمر " أنا لك المنقذ" وينقذونني لشهور قليلة في أماكن معزولة يفرغون فيها شحناتهم الجنسية، ثم يطلبون مني المغادرة بعدها»²⁸، فاختزال المرأة في جسد يدفع الجنس الذكوري لاستغلاله وتدنيسه، مما أدى باسمهان للعمل في الملاهي الليلية، واحتراف الدعارة مفضلة ذلك على استغلالها من طرف وحوش بشرية، وبرغم من تدنس الجسد تبقى الروح هي الأساس والجوهر «الروح أشرف ما في الإنسان .. أنت التي يرونك وسخة وقذرة وتستحقين الموت على الحياة.. بوركنت أيتها القديسة الشجاعة ..»²⁹

يدنس الجسد بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة، فيتاجر بالجسد لكسب المال ك (ربعة) التي طلقت بطفلة وهي لم تتعدى سن التاسع عشر، وأحيانا أخرى تستعمل المرأة جسدها للحصول على ما تريد، وهي فكرة راسخة في ذهن العديد من النساء فهن «يتعرضن لتثقيف متواصل في أن هذا ما يجعلها جذابة ومثيرة. وبذا تكون المرأة نفسها بضاعة معروضة لإغراء الرجال ويكون الفن واللغة وسائل دعائية تعبر إلى المشتريين بواسطة الجسد المؤنث وما يملكه من إغراء جنسي. وليس في هذه الثقافة الذكورية بضاعة أكثر جذبا وإغراء من أجساد النساء»³⁰ مثلا زوج للمستقبل مناسب لطموحاتهن «لندة الشقية رغم روحها المرحّة، وجسدها الجميل، الذي تحرص على أن يكون دائما في مقدمة المشهد، هو السلاح الأول الذي تثير به لعاب الرجال، وهو الواجهة التي تريدها فاتنة وخلاصة وتركع كل قهار متجبر»³¹ فهو وسيلة الإغراء والإغواء.

وقد يكون الجسد للانتقام بتدنيسه كما هو حال مع (سميرة قطاش) الأستاذة الجامعية، الحاملة بحياة أفضل تصيبها لعنة الجسد بعد فشل قصة حبها مع (صادق سعيد)، والعبث به مع (فاروق الطيبي) «الجسد صار الهاوية، أتنفن في إيذائه، تمرّغه في الأرض»³²، مما ولد لديها صراعا داخليا مع ذاتها فهي كانت تحطم نفسها بالرغم من وعيها الثقافي مما دفعها لاختيار الموت

يمكن تلخيص استعمال الجسد من طرف المرأة وفق الجدول التالي

الرواية	الشخصية المرأة	إستعمال الجسد
خرائط لشهوة الليل	ليليا	الانتقام ربح المال الهروب من الواقع اللذة
	لولا	كسب المال للعيش
دمية النار	رانية مسعودي	الجوسسة

أشباح المدينة المقتولة	زهية	النضال
	إسمهان	التمرد
	ربيعة	كسب المال للعيش
اختلاط المواسم	لندة	الحصول على زوج غني
	سميرة قطاش	الانتقام

4- المرأة والعنف:

استطاع بشير مفتي من خلال رواياته أن يضع يده على جرح نرف ومازال ينزف إلى الآن، على ظاهرة اجتماعية سلبية متفشية وهي ظاهرة العنف ضد المرأة سواء كان هذا العنف جسدي أو حسي، فالمرأة في كل المجتمعات تعنف، حتى في العالم المتقدم الذي يدعي حرية المرأة واستقلاليتها، أما في الجزائر فأصبح منتشرًا، فالمرأة تعيش تحت السلطة الذكورية من الأب و الأخ والزوج... إلخ، وكلهم لديهم الحق في تعنيفها، وهذا راجع للنظرة الدونية لها، على الرغم من أن الدين الإسلامي لم يذكر دونيتها ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)) (النساء الآية 1)، فالخلق كان من نفس واحدة، فالمرأة تظهر « وكأنها هي (كائن طبيعي) مطلق الدلالة، وتام الوجود من حيث الأصل، لكنها تحولت بفعل الحضارة والتاريخ إلى (كائن ثقافي) جرى استلبها وبخس حقوقها لتكون ذات دلالة محددة ونمطية. ليست جوهرا وليست ذاتا وإنما هي مجموعة صفات»³³، هذه النظرة الدونية هي نتيجة التراكمات الثقافية والاجتماعية والتاريخية والأسطورية رسمها و أنتجها الفكر الذكوري، وتجذرت داخل المجتمع و ارتسمت بالأذهان لحد الآن، وليست وليدة عصر من العصور دون سواء، لتكون تابعا مطيعا للذكر فهي أسيرته وهو الوصي عليها.

هي الأنثى المضطهدة في المجتمع الجزائري «رأيت أبي يضرب أمي ضربا عنيفا وهو يصرخ بهذيان في وجهها: لو فعلتها مرة ثانية لقتلتك! لم أتذكر قط سبب الضرب، سبب كل ذلك العنف والصراخ، والعيول والبكاء»³⁴، ينقلب دور الزوج من سند المرأة إلى معنف لها على أتفه الأسباب.

تعرض المرأة للتعنيف لغياب السلطة الأبوية، وتسلب الأخ ف (رانية مسعودي) تعرضت لأنواع متعددة من العنف الأسري، عانت من سلطة الأخ وضربها ومنعها من الدراسة بسبب وشاية «...وشى بها لأخوها كمال الذي راح يضربها أمامي ضربا لا يوصف، صفعات وراء صفعات، ركلات بينما راحت هي تصرخ تستنجد بي، وهي تأخذ نصيبها من الرجولة الملتبسة بالتقاليد، والأكاذيب المزيفة»³⁵، فأى رجولة هذه التي تستبيح جسدا ضعيفا.

(وردة سنان) هي الأخرى تتعرض للضرب من قبل زوج أمها وهي طفلة، وتنتهي حياتها على يد أحد الإرهابيين - الزاوش- ذبحا «سحبته من على السرير دون أن تبدي أي مقاومة، بقيت عيناها متربصتين بعيني كأنها تقول لي: "أقتلني أيها النذل، فلن أتضرع لك، لن أتخذل أمامك أيها الجبان" بضربة واحدة من الخنجر فتحت رقبتها، وسال دمها على جسمها، ولطخ ثيابي أنا كذلك. ثم خرجت روحها، وهمدت أنفاسها، واستكانت لموتها»³⁶.

وفي كثير من الأحيان تعنف المرأة من قبل الزوج في حد ذاته الذي يعتقد أن له الحرية المطلقة في التصرف معها كما يشاء ويرغب، حال (اسمهان) التي كانت تضرب من طرف زوجها وقبله والدها لمجرد شكوك واهية، هذا العنف الجسدي والمعنوي هو ما دفعها للهرب من المنزل والعمل في الدعارة، لاستحالة تحمل هذا الوضع المأساوي مدى الحياة.

انتشرت ظاهرة التحرش الجنسي بالمرأة في المجتمع الجزائري بكثرة فلم تسلم منها جميع النساء، حتى من الفئات المثقفة والمسؤولة عن تنشئة الأجيال، فمدير المدرسة يتحرش بمعلمة العربية في رواية دمية النار، مما تسبب في طردها لأنها لم تستجب له.

من أبشع صور العنف ضد المرأة انتهاك عرضها واغتصابها، فقد عانت المرأة منه منذ القدم، فزيادة لمعاناة الشعب الجزائري من الاستعمار الفرنسي الغاشم نجده استباح جسد النساء الضعيفات منهن بكل وحشية لإشباع غرائزه الحيوانية «لقد كان ذلك الفرنسي يغتصبني، ما زلت أتذكر ذلك. كان وقع السماع حينها شديد الإيلام، وشعرت كما لو أنني عشت تلك اللحظة ثانية وراء ثانية دون أن أقدر على فعل شيء»³⁷ فعلى الرغم من الانتقام إلا أنه لا يمحو آثار الألم النفسي الذي غرس في روحها.

لم ترحم هذه الوحوش البشرية حتى براءة الأطفال ف (زهية) بنت العاشرة أو الحادية عشر تعرضت لهذا الفعل المشين على يد القائد التابع لفرنسا (خالد)، وليكرهه مع عدد كبير من الفتيات الصغيرات «...ودخلنا إلى غرفة نومه، ووجدناه يا للعار مع فتاة صغيرة، وذكرني ذلك المنظر بكل تلك الليالي الشقيات التي عشتها»³⁸.

حتى بعد الاستعمار استباح الذكر جسد المرأة فهذه (عيشة) تغتصب من طرف معلم، أرادت التعلم فنزعت منها طفولتها «نعم ذهبت ولكن في يوم من الأيام كان هنالك معلم شاب حاول أن يأخذني بالقوة (...) نعم هو خسيس، لكن والده رئيس الأمن»³⁹ فكان الفرق بين أيام الاستعمار والاستقلال أن المغتصب الأول أجنبي، والثاني من أبناء الوطن مستغل لنفوذه وسلطته في التعدي على غيره، كذلك (رانية مسعودي) يغتصبها (رضا شاوش) وهي متزوجة وينتج عن هذا الاغتصاب ولد منحرف، ويكون سببا في طلاقها وانحرافها للعمل في الدعارة.

أحيانا المرأة يخونها ذكاؤها وبديل أن تنال المطلوب، تقع في المحذور وتخسر كل شيء، وما حالة (لنده) في رواية اختلاط المواسم إلا مثالا حيا عن العديد من الفتيات اللواتي يثرن مشاعر الرجال للحصول على زوج ميسور الحال فيتعرضن للاغتصاب، (سميرة قطاش) تعرضت للاغتصاب بوحشية مما ترك لها جرحا لا يلتئم مهما مر عليه الزمن «فاغتصبي بشناعة في إحدى الأماسي الباردة بالقرب من غابة صغيرة»⁴⁰ بالرغم من مكانتها الاجتماعية المرموقة لم تسلم من الاعتداء، في مجتمع لا يحترم المرأة ويرها مجرد جسد لتلبية احتياجاته الجنسية الحيوانية.

5- الخاتمة:

كانت المرأة حاضرة بقوة في العالم الروائي لبشير مفتي، وأدت دورا مهما في المسار السردى الذي أضافت له جمالية متفردة ومتميزة، فاختلف حضورها وتنوعت صورها، وواقعها، فهناك المرأة المتمردة التي تمردت على القوانين والأعراف، والمرأة الحبيبة المرغوبة، والمرأة الزوجة رفيقة الدرب، والمرأة الأم.

كما استطاع الروائي -بشير مفتي- أن يزح الستار ويكشف ما تعانيه المرأة من صراعات سواء صراعات داخلية بين الأنا والجسد، هذا الأخير الذي يعتبر الوسيلة الأكثر استعمالا عند البعض للوصول لأهدافها المسطرة، وصراعات خارجية في مواجهتها لمختلف أشكال العنف، في ظل مجتمع ذكوري مهيمن، فالمرأة كائن إنساني لم تخلق للإهانة لقوله صلى الله عليه وسلم «ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم».

الهوامش

¹ حسين المناصرة، (2008)، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، ص 14

² بشير مفتي، (2008)، خرائط لشهوة الليل، منشورات الاختلاف، الجزائر الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط 1، ص 15

³ بشير مفتي، (2017)، أشباح المدينة المقتولة، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2، ص 111

⁴ المكتب العالمي للبحوث، (د ت) الحب عند العرب - دراسة أدبية تاريخية-، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ب ط، ص 14

⁵ المرجع نفسه، ص 24

⁶ بشير مفتي، (2013)، دمية النار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، ص 60

⁷ المصدر نفسه، ص 94

⁸ بشير مفتي، (2016)، لعبة السعادة أو الحياة القصيرة لمراد زاهر، منشورات ضفاف بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، ص 71، 72

- ⁹ المصدر نفسه، ص 178
- ¹⁰ بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص 84
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 342
- ¹² بشير مفتي، (2019)، إختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص 14
- ¹³ بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص 206
- ¹⁴ بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، ص 11
- ¹⁵ بشير مفتي، دمية النار، ص 27
- ¹⁶ ابن منظور، (د ت)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، المجلد الأول مادة الجسد، ص 622
- ¹⁷ الزهر إبراهيم (2009)، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية -جوه الجسد-، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، ص 81
- ¹⁸ فريد الزاهي، (1999)، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ص 27
- ¹⁹ داقيد لوبروتون، (1997)، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، ص 19
- ²⁰ الزهر إبراهيم، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية -جوه الجسد-، ص 90
- ²¹ بشير مفتي، خرائط لشهوة ليل، ص 16
- ²² المصدر نفسه، ص 66
- ²³ المصدر نفسه، ص 33
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 91
- ²⁵ عبد الله محمد الغدامي، (2006)، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء- المغرب، ط3، ص 34
- ²⁶ بشير مفتي، دمية النار، ص 155
- ²⁷ بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص 89
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 210
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 212
- ³⁰ عبد الله محمد الغدامي، المرأة واللغة، ص 30
- ³¹ بشير مفتي، إختلاط المواسم، ص 201
- ³² المرجع نفسه، ص 222
- ³³ عبد الله محمد الغدامي، المرأة واللغة، ص 16
- ³⁴ بشير مفتي، دمية النار، ص 25
- ³⁵ المصدر نفسه، ص 44
- ³⁶ بشير مفتي، أشباح المدين المقتولة، ص 147
- ³⁷ المصدر نفسه، ص 178

³⁸ المصدر نفسه، ص 85

³⁹ بشير مفتي، لعبة السعادة، ص 117

⁴⁰ بشير مفتي، إختلاط المواسم، ص 180